حَيَاةُ النَّبِيِّ ﷺ

بَعْثَةُ النَّبِيِّ ﷺ



سفير

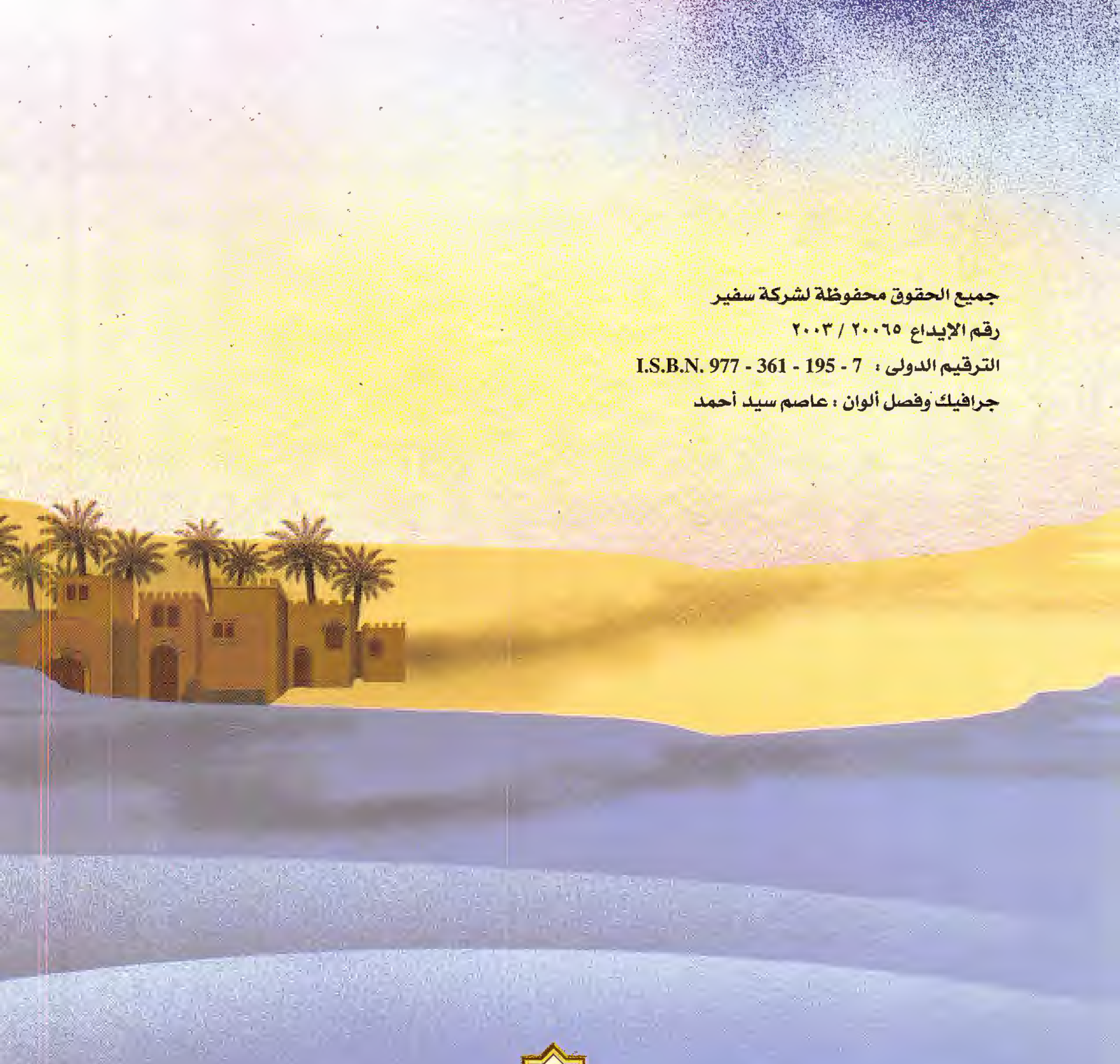
حَيَاةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم

بَعْثَةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم

كتبها
سمير حلبى

رسوم
عبد المرضى عبيد

رقم الإيداع ٢٠٠٦٥ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 361 - 195 - 7
جرافيك وفصل ألوان : عاصم سيد أحمد



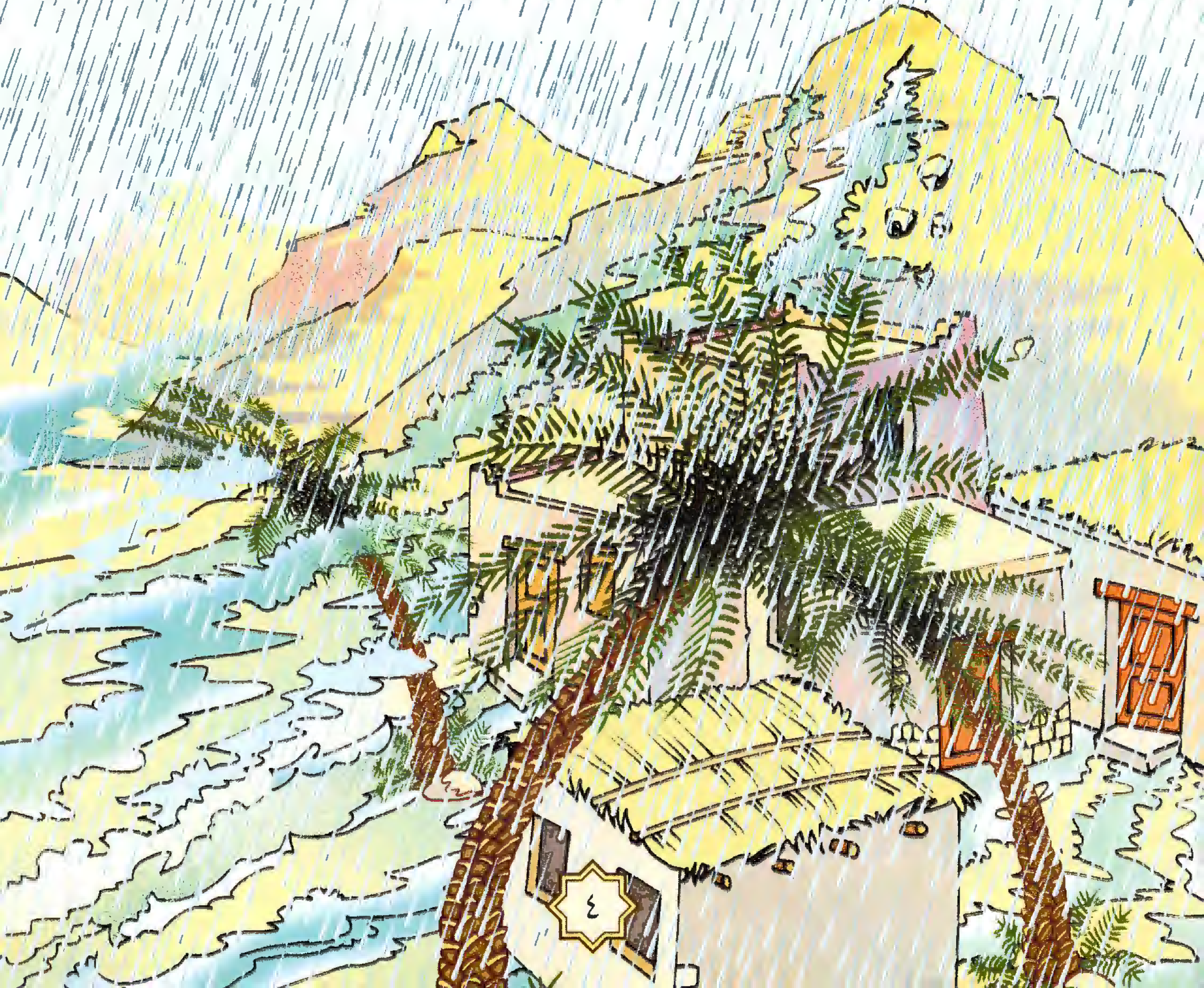
كَانَتِ السُّحُبُ الكَثِيفَةُ تَمْلأُ السَّمَاءَ، وتَسُدُّ الأُفُقَ بِلَوْنِها الرَّمَادِيِّ الدَّاكِنِ، واخْتَفَتِ الشَّمْسُ وَرَاءَ تِلْكَ الغُيُومِ التِى بَدَتْ وَكأَنَّها جِبَالٌ تَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ فَوْقَ سَمَاءِ مَكَّةَ.

وَأَخَذَتْ قَطَرَاتُ المَطَرِ تَتَسَاقَطُ فَوْقَ رِمَالِ الصَّحْرَاءِ المُمتَدَّةِ فِى إيقَاعٍ رَتِيب، وَمِنْ بَعِيدٍ بَدَتِ الكَعْبَةُ وقَدْ أَخَذَتِ المِيَاهُ تَتَجَمَّعُ مِنْ حَوْلِها، وكَأَنَّهَا تَعْكِسُ صَفْحَةَ السَّمَاءِ الدَّاكِنَة.



وَتَلاحقَتْ قَطَرَاتُ المَطَرِ بِشَكْلٍ مُتَوَاصِلٍ حَتَّى صَارَتْ وَكَأَنَّهَا خُيوطٌ كَثِيفَةٌ تَصِلُ مَا بَيْنَ الأَرْضِ والسَّمَاءِ.

وَفَجْأَةً بَدَأَتِ المِيَاهُ تَنْحَدِرُ بِشِدَّةٍ مِنْ جِبَالِ «مَكَّةَ» القَرِيبةِ وانْدَفَعَتْ بِقُوَّةٍ وعُنْفٍ لِتُطِيحَ بِكُلِّ مَا يُقَابِلُهَا، وَارتَفَعَتِ المِيَاهُ لِتَغْمُرَ كُلَّ شَيْءٍ.



كَانَتِ السُّيُولُ تَجْرِفُ فِى طَرِيقِهَا قِطَعَ الصُّخُورِ والأَحْجَارِ الكَبِيرةَ، وَتَدْفَعُهَا بِقُوَّةٍ كَأَنَّهَا قِطَعٌ مِنَ الخَشَبِ.

وَانْدَفَعَتْ تِلْكَ السُّيولُ نَحْوَ بُيُوتِ «مَكَّةَ»، تَكْتَسِحُهَا بِكُتَلِ الحِجَارَةِ والصُّخُورِ، فَانْهَارَ كَثِيرٌ مِنْ تِلْكَ الدُّورِ، وَبَعْدَ أَنِ انْحَسَرَ السَّيْلُ ظَهَرَتْ جُدْرَانُ الكَعْبَةِ وَقَدْ أُصِيبَتْ بِكَثِيرٍ مِنَ الشُّقُوقِ والتَّصَدُّعَاتِ.



بَدَتْ بُيُوتُ «مَكَّةَ» وَكَأَنَّهَا أَطْلالُ مَدِينَةٍ قَدِيمَةٍ أَصَابَهَا الدَّمَار مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ، وانْتَشَرَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ، يُفَتِّشُونَ بَيْنَ حُطَامِ تِلْكَ البُيُوتِ عَنْ أمْتِعَتِهِم، وَيَسْتَخْلِصُونَ مِنْهَا مالَمْ تُحَطِّمْهُ السُّيُولُ .

وَفِى سَاحَةٍ وَاسِعَةٍ وَسَطَ ذَلِكَ الحُطَامِ والدَّمارِ اجْتَمَعَ عَدَدٌ مِنْ زُعَمَاءِ مَكَّةَ وَرُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ للتَّشَاوُرِ فِى إعَادَةِ بِنَاءِ الكَعْبَةِ .



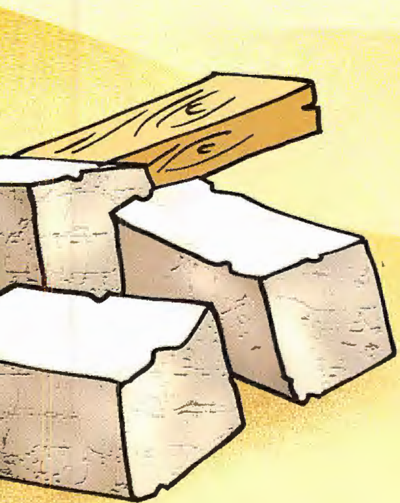
تَرَدَّدَ كَثِيرٌ مِنَ الحَاضِرِينَ فِى أَمْرِ هَدْمِ جُدْرانِ الكَعْبَةِ وإعَادَةِ بِنَائِهَا مِنْ جَدِيد، فَقَدْ كَانَ للكَعْبَةِ مَكَانَةٌ عَظِيمَةٌ فِى قُلُوبِهِم وَهَيْبَةٌ شَدِيدَةٌ فِى نُفُوسِهِم، وَلَمْ يَكُنْ الإِقْدَامُ عَلَى هَدْمِهَا بِالأَمْرِ الهَيِّنِ، حَتَّى وإنْ كَانَ الهَدَفُ صِيانَتُهَا وإعَادَةُ بنائِهَا مِنْ جَدِيدٍ.



لَكِنَّ زُعَمَاءَ «مَكَّةَ» لَمْ يَجِدُوا أَمَامَهُم – فِى النِّهَايَةِ – بُدًّا مِنَ الإِقْدَامِ عَلَى تِلْكَ الخُطْوَةِ الجَرِيئَةِ بِالرَّغْمِ مِنْ شُعُورِ الخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ الذى تَمَلَّكَهُمْ.

وَسُرْعَانَ ما بَدَأَ العَمَلُ فِى إعَادَةِ بِنَاءِ الكَعْبَةِ مِنْ جَدِيدٍ، وَكَانَ يشَارِكُ فِى البِنَاءِ أَشْرَافُ قُرَيشٍ وَسَادَاتُهم، يحْمِلُونَ الأَخْشَابَ وَقِطَعَ الحِجَارَةِ فِى تَعَاونٍ وَحَمَاسٍ عَجِيبَيْنِ.

وَارْتَفَعَ البِنَاءُ حَتَّى قَارَبَ الانتِهَاءَ، فَلَمَّا أَرَادُوا وَضْعَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ فِى مَوْضِعِهِ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهم، وَأَرَادَ كُلٌّ مِنْهُم أَنْ يحْظَى بِهَذَا الشَّرَفِ، وَتَنَافَسُوا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى كَادَتْ تَحْدُثُ فِتْنَةٌ وَتُشْعَلُ الحَرْبُ بَيْنَهم، لكِنَّهم فِى النِّهَايَةِ اتَّفَقُوا عَلَى الاحْتِكَامِ إِلَى أَوَّلِ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِم.





وكَانَ «مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ» ﷺ هُوَ أَوَّلُ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا جَمِيعًا:

- هَذَا الأَمِينُ رَضِينَاهُ.

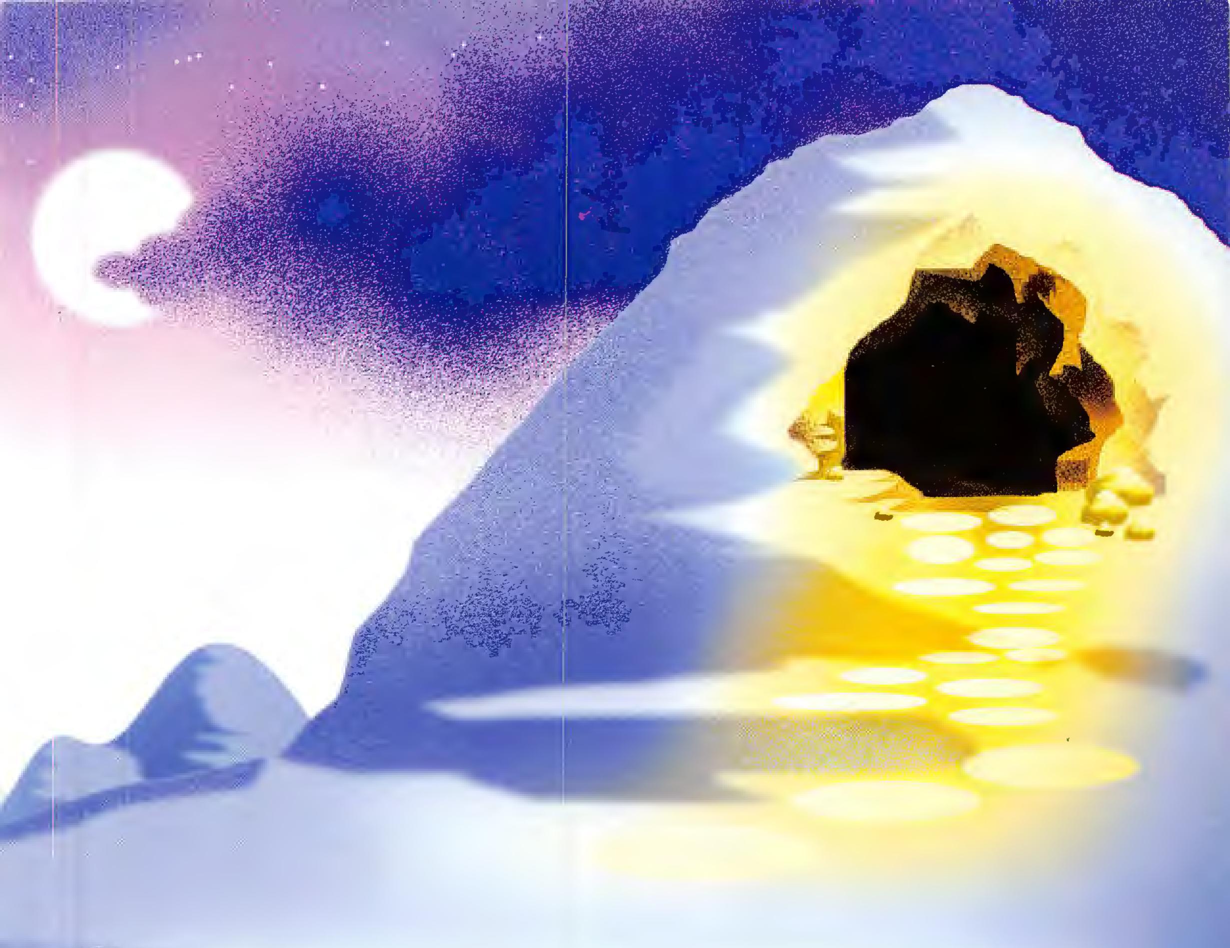
فَلَمَّا حَكَّمُوه بَيْنَهُم بَسَطَ مُحَمَّدٌ ﷺ رِدَاءَهُ، وَوَضَعَ الحَجَرَ فِيهِ، وَقَالَ لَهُمْ:

- لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوبِ.

فَلَمَّا رَفَعُوا الحَجَرَ إِلَى مَوْضِعِهِ، تَنَاوَلَهُ بِيَدِهِ وَوَضَعَهُ فِي مَكَانِهِ.

كَانَ هذَا التَّصَرُّفُ الحَكِيمُ مِنْ « مُحَمَّدٍ » ﷺ سَبَبًا فِي مَنْعِ فِتْنَةٍ عَظِيمَةٍ بَيْنَ العَرَبِ، وَكَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَرَادَ أَنْ يُهَيِّئَهُ لأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَيَجْعَلُ ذَلِكَ بِشَارَةً لِجَمْعِ شَمْلِ العَرَبِ وَنَشْرِ الحُبِّ والوِئَامِ بَيْنَهم، عَلَى يَدَيْهِ فَإِنَّ «مُحَمَّدًا» لَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ بِمَا يُقْبِلُ عَلَيْهِ شَبَابُ مَكَّةَ مِنْ أُمُورِ اللَّهْوِ والعَبَثِ، وَإِنَّما كَانَ يُحِبُّ الخَلْوَةَ والتَّعَبُّدَ فِي غَارِ «حِرَاء» فَوْقَ أَحَدِ الجِبَالِ القَرِيبَةِ مِنْ «مَكَّةَ».





ظَلَّ «مُحَمَّدٌ» ﷺ يَخْلُو بِنَفْسِهِ فِى غَارِ «حِرَاء»، فَيَتَعَبَّدُ اللَّيَالِيَ الطُّوالَ، وذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَمَا كَانَ «مُحَمَّدٌ» فِى الغَارِ أَبْصَرَ فَجْأَةً شَخْصًا أَمَامَهُ، فَدَاخَلَهُ شَىْءٌ مِنَ الخَوْفِ والرَّهْبَةِ، فَضَمَّهُ «جِبْرِيلُ» عَلَيْهِ السَّلامُ قَائلاً: اقْرَأْ. فَقَالَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ: مَاأَنَا بِقَارِئٍ. فَظَلَّ جِبْرِيلُ يُرَدِّدُها عَلَيْه، حَتَّى قَالَ لَهُ وَقَدْ تَمَلَّكَتْهُ الحَيْرَةُ. مَاأَقْرَأ؟ فقالَ لَهُ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق: ١).

كانَ وَقْعُ المُفَاجَأَةِ شَدِيدًا عَلَى«مُحَمَّدٍ»، فَتَمَلَّكَه الخَوْفُ، وَأَسْرَعَ عائدًا إلَى «مَكَّةَ».

دَخَلَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ عَلَى زَوْجَتِهِ «خَدِيجَةَ» وَهُوَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا وَأَسْرَعَ إِلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ يَرْجُفُ وطَلَبَ مِنْها أَنْ تُغَطِّيَهُ، فَغَطَّتْهُ «خَدِيجَةُ» حَتَّى زَالَ عَنْهُ الخَوْفُ وَهَدَأَتْ نَفْسُهُ، فَرَاحَ يَقُصُّ عَلَيْها مَا حَدَثَ، فَأَخَذَتْ «خَدِيجَةُ» تُطَمْئِنُهُ وَتُشَجِّعُهُ، ثُمَّ طَلَبَتْ مِنهُ الذَّهَابَ مَعَهَا إلى ابْنِ عَمِّها «وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ».





نَظَرَ « وَرَقَةُ» إِلَى « مُحَمَّدٍ » ﷺ طَوِيلاً ، ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ عَمِيقٍ:

-إِنَّهُ المَلَكُ « جِبْرِيلُ» الذِى أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى وعِيسَى.

وَصَمَتَ قَلِيلا وَهُوَ يَنْظُرُ نَحْوَ السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ:

- لَيْتَنِى كُنْتُ شَابًا قَوِيًا لأُسَاعِدَكَ وَأَحْمِيَكَ فِى نَشْرِ دَعْوَتِكَ.

اطْمَأَنَّ قَلْبُ «مُحَمَّدٍ » لِكَلِمَاتِ «وَرَقَةَ»، وَعَادَ إِلَى بَيْتِهِ فِى رِضًا وَسَعَادَةٍ.

ظَلَّ النَّبِىُّ ﷺ يَتَرَدَّدُ عَلَى الغَارِ، وَهُوَ فِى شَوْقٍ إِلى عَودَةِ «جِبرِيلَ» إِلَيْهِ، حَتَّى جَاءَهُ مَرَّةً أُخْرَى يُبَشِّرُه بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ وبَدَأَ النبِىُّ ﷺ يَدْعُو النَّاسَ سِرًا إِلى الإِسْلامِ ، وَكَانَ المُسْلِمُونَ الأوائلُ يَجْتَمِعُونَ سِرًّا فِى دَارِ« الأَرْقَمِ بْنِ أَبِى الأَرْقَمِ».

بَدَأَ نُورُ الإسْلامِ يُشْرِقُ فِى «مَكَّةَ»، وَأحَسَّتْ «قُرَيشٌ» بِالخَطَرِ مِنْ هَذَا الدِّينِ الجَدِيدِ، فَرَاحَتْ تُعَذِّبُ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِالنَّبِىِّ ﷺ.

وَتَحَمَّلَ المُسْلِمُونَ الأوائِلُ مِنْ صُنُوفِ العَذَابِ وَالأذَى فِى سَبِيلِ اللَّهِ مالا يَتَحَمَّلُه كَثِيرٌ مِنَ البَشَرِ، وَظَلَّ النَّبِىُّ ﷺ يَدْعُو النَّاسَ سِرًا إلَى الإسْلامِ ثَلاثَ سَنَوَاتٍ، حَتَّى أَمَرَه اللَّهُ بِالجَهْرِ بِالدَّعْوَةِ، لِتَبْدَأَ مَرْحَلَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ مَسِيرَةِ الإسْلامِ.



إنَّ خَيْرَ ما يَقْرَؤُه أَبْنَاؤُنَا هُوَ السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ التى تَقُصُّ عَلَيْهِمْ حياةَ خيرِ البَشَرِ وأَكْملِ إنْسَانٍ عَاشَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ. إذْ كَانَتْ حَيَاتُهُ كُلُّهَا دِينًا وَدُنْيَا، عِلْمًا وَعَمَلاً، خُلُقًا وسلُوكًا، بُطُولَةً وكِفَاحًا، رَحْمَةً وَعَدْلاً، عفْوًا وسَمَاحَةً.

بَعَثَهُ اللهُ فِى جزيرَةِ العرَبِ، فَأَحْيَا أُمَّةً وأَقَامَ دَوْلَةً، وَرَبَّى رجالاً، فأَنَارَ الدُّنْيَا وَنَشَرَ الإسْلَامَ.

صدر منها:

6 222002 126807

سفير ١٥ شارع أحمد عرابي - المهندسين - ص . ب: ٤٢٥ الدقى - القاهرة ت: ٣٤٤٧١٧٣ فاكس: ٣٠٣٧١٤٠١
E-Mail:Safeer@link.com.eg Web Site: www.safeer.com.eg